تطور اللغة وأثره في القرآن الكريم

حسن عكريش/Hasan AKREŞ*

Dil Gelişimi ve Kur'an-ı Kerim'deki İzleri

Öz Dildeki gelişim tıpkı hayattaki nesnel ve öznel gelişim ve değişim gibi kaçınılmaz bir olgudur. Bu gelişim, daha çok dildeki seslerin (fonetik) ve seslerin işaret ettiği mefhumların (semantik) zaman içinde uğradığı değişimlerdir. Söz konusu değişimler dilin çeşitli düzeylerinde meydana gelebilmekte ve dilde çok derin ve köklü bir etki bırakabilmektedir. Bütün bunlar insan hayatının çeşitli alanlarında meydana gelen değişimlerin doğal bir neticesi olarak ortaya çıkmaktadır. Modern dil araştırmaları göstermiştir ki dilin gelişim ve değişimi zorunlu bir süreçtir. Dil, ne kadar korunursa korunsun bu gelişimin önüne geçilemeyecektir. Zira bu değişim tesadüf eseri veya insanların çabası sonucu değildir. Bu değişim, dilin kendi seyri içerisinde zorunlu olarak gerçekleşmekte ve dilin tüm öğelerini kapsamaktadır; ancak bu değişim daha çok ses ve sesin işaret ettiği mefhumlarda ortaya çıkmaktadır. Seslerde ve sözcüklerin anlamlarında meydana gelen değişim, söz dizimindeki (sentaks) değişime oranla daha fazladır. Arapçadaki değişim ve gelişim diğer dillere oranla daha yavaş seyretmiştir. Bunun nedeni ise Arapçanın Kur'an-ı Kerim'le olan irtibatıdır.

Anahtar kelimeler: Dildeki gelişim, anlam daralması, anlam özelleşmesi, Arapça, Kur'an.

Language Development and it's Effects on the Qoran

Abstract The development in a language is like the development and change in any object. It is inevitable matter. Simply the development in a language is mainly effected its sounds and the cocepts of the sounds. On the other hand the changes can effected the meaning of the words all these changes is results and effected with peoples way of live. Modern linguistic research has shown that languages a mandatory process of development and change. The protection of a language can not stop its development, because these changes is not coming by chance or by peoples efforts but actually these are realized as mandatory in languages progress. This changement covers all language's items, but mostly effected its sounds and the concept of sounds. The changement and development in Arabic is slowly than other languages because arabic is protected by Allah and this is because its relations with Quran.

Keywords: Development of the Language, semantic narrowing, specialization of meaning, Arab Language, Koran.

---

* Gazi Üniversitesi, Gazi Eğitim Fakültesi, Arap Dili Eğitimi Bölümü doktora öğrencisi.

مـــدخـــل:

التطور في اللغة أمر حتمي يشبه أن يكون وجها من وجوه الحياة نفسها. وهو في معناه البسيط التغيير الذي يطرأ على اللغة سواء في أصواتها أو دلالة مفرداتها، أو في الزيادة التي تكتسبها اللغة أو النقصان الذي يصيبها، وذلك كله نتيجة عوامل مختلفة ترتبط ارتباطا وثيقا بحياة الأمم في كافة مجالاتها.

وأشارت الدراسات اللغوية الحديثة إلى أن التطور الذي يصيب اللغة هو أمر حتمي "فاللغة دائمة التطور مهما أحيطت بسياج من الحرص عليها والمحافظة على خصائصها" (أنيس، ١٩٨٤، ١٦٠). ومن ثم لا يمكن لمجتمع الوقوف أمام تطور اللغة التي يتكلم بها، ذلك لأن تطورها هذا لا يجري تبعا للأهواء والمصادفات، أو وفقا لإرادة الأفراد، وإنما يخضع في سيره لقوانين جبرية ثابتة، مطردة النتائج، واضحة المعالم، محققة الآثار، لا يد لأحد على وقف عملها أو تغيير ما تؤدي إليه. (أبو عودة، ١٩٨٥، ٤٥). وهذا التطور الذي يصيب اللغة يصيبها في جميع مستوياتها من صوت وبنية وتركيب ودلالة، إلا أن هذا التطور أكثر ما يكون في الصوت والدلالة، وفي المفردات أكثر مما هو في التركيب. (قدور، ١٩٨٩، ١٢٤).

ويشير القويدر (١٩٩٩، ٣٦) في هذا الموضوع إلى أن أهل الكهف خير دليل على تطور اللغة بعدما لم يعد بمقدورهم التفاهم مع الناس وبيان دلالة المعنى بعد بقائهم في الكهف لمدة ثلاثمئةٍ وتسع سنوات، إذ يقول جلَّ شأنه {وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا} الكهف: ١٩، وبات أهل المدينة لم يستطع من فهم ما يريدونه بسبب بقائهم مدة طويلة في الكهف، وتعرضت اللغة إلى جملة من التطورات والتغييرات خلال هذه الفترة مما استصعب عليهم فهم أو إفهام ما يريدونه.

عوامل التطور الدلالي وأشكاله ومظاهره

إن التطور الذي يصيب اللغة لا بد من أن يكون متأثرا بعوامل شتى منها عوامل خارجية كالصراع اللغوي الذي يحدث بين اللغات وعوامل داخلية تتمثل في اللغة نفسها وطريقة

استعمالها، (وافي، ٢٠٠٤، ٣١٩). وقد لخص معظم اللغويين أسباب التطور الدلالي بالشكل التالي:

أولا:– أسباب دينية

وتقضي هذه الأسباب بنقل مدلول اللفظ من المعنى اللغوي إلى المعنى الديني لحاجة شرعية، وستتطرق المقالة لاحقا إلى هذا الموضوع عند الكلام عن أثر التطور الدلالي في القرآن الكريم

ثانيا:– أسباب لغوية

يتغير مدلول الكلمة عند انتقالها من لهجة إلى أخرى، أو من لغة إلى أخرى، وهي من أكثر الأسباب تعلقا بمعاني الألفاظ، فكلما كان وضوح المعنى أكثر كانت الفرصة في التغير أقل والعكس صحيح أيضا، فمنها:

أ– سوء الفهم ويقصد به سوء فهم القارىء أو المستمع لمعنى كلمة فيفهمها خطأ ويكون ذلك عادة حين قراءة الكلمة أو سماعها لأول مرة، وقد يشيع هذا الخطأ، ويترتب عليه تطور دلالي للكلمة (الدابولي، ١٩٩٥، ١٥٨).

ب– التطور الصوتي لبعض الأصوات: فبعض الألفاظ يتغير – أحيانا – شيء من أصواتها فينتج عن ذلك أن يتغير معنى اللفظ، وتماثل – بالتالي – تلك الكلمة كلمةً أخرى مغايرة لها في المعنى، مثلا كلمة (كُماش) الفارسية، والتي تعني نسيجا من قطن خشن، تطور فيها صوت الكاف فصار قافاً، فماثلت كلمةً عربية لها معنى آخر وهي كلمة (قُماش) والتي تعني أراذل الناس، وما وقع على الأرض من فتات الأشياء ومتاع البيت، واكتسبت الكلمة العربية بهذه المماثلة دلالة جديدة على المنسوجات. وقد يتغير المعنى بمرور الوقت بسبب تغير طبيعته أو وظيفته أو الشؤون الاجتماعية المتصلة به، كالبريد والقطار، فالبريد مثلا كانت تطلق على الدابة التي تحمل عليها الرسائل، ثم أصبحت تطلق على النظم والوسائل التي تتخذ لتنظيم هذه العملية في الوقت الحاضر. والقطار في الماضي هو مجموعة من الإبل على نسق واحد تستخدم في السفر. واليوم هو مجموعة من العربات المتصلة ببعضها تسير بوسائل ميكانيكية. (الوافي، ٢٠٠٤، ٣٢٤).

ثالثا:– أسباب اجتماعية

تتأثر اللغة أيما تأثر بحضارة الأمة، ونظمها وتقاليدها، وعقائدها واتجاهاتها ودرجة ثقافتها، ونظرها إلى الحياة، وأحوال بيئتها الجغرافية، وشؤونها الاجتماعية العامة. فكل تطور يحدث في ناحية من هذه النواحي يتردد صداه في أداة التعبير. ولذلك تعد اللغات أصدق سجل لتاريخ الشعوب. فبالوقوف على المراحل التي اجتازتها لغة ما، وفي ضوء خصائصها في كل مرحلة منها، يمكن استخلاص الأدوار التي مر بها أهلها في مختلف مظاهر حياتهم. (الوافي، ٢٠٠٤، ٢٥٧).

وما يحدث بين حضارة الأمة ولغتها من توافق وانسجام، يحدث مثله بين لغتها ومظاهر بيئتها الجغرافية. فجميع خصائص الإقليم الطبيعية تنطبع في لغة سكانها. ولذا نشأت فروق كبيرة في مختلف مظاهر اللغة بين سكان المناطق الجبلية وسكان الصحراء وسكان الأودية وبين سكان المناطق الشمالية والوسطى والجنوبية، ومن ثم كذلك نشأت فروق غير يسيرة بين الفصيلة اللغوية الواحدة بل بين اللهجات للغة الواحدة. ومن أجل ذلك أيضا غزرت في كل لغة المفردات التي تدور حول مظاهر بيئتها الجغرافية، ودقة دلالتها وانبثت في شتى فنون القول. ومن أجل ذلك أيضا كان قسط كبير من مادة الخيال والتشبيه في كل لغة مستمدا من مظاهر البيئة وماختصت به طبيعة البلاد. ومن أجل ذلك أيضا تمثل في أسلوب اللغة وفنونها الأدبية ما تختص به بيئتها الطبيعية تلبداً أو صفاءً، وقبحا أو جمالاً، وصخباً أو هدوءً، وتنوعاً أو اطراداً، وتقلباً أو ثباتاً، وما ينبعث عنها من رخاوة أو قوة، وخمول أو نشاط، وخشونة أو نعومة. ولذا يستطيع الباحث معرفة البيئة الأولى التي نشأت فيها لغة ما على ضوء مفردات هذه اللغة وغزارتها في بعض النواحي، وما تجنح إليه أساليبها ومادتها في الخيال والتشبيه وخواص آدابها.

مظاهر النشاط الاقتصادي تطبع اللغة كذلك بطابع خاص في مفرداتها ومعانيها وأساليبها وتراكيبها. ومن ثم اختلفت مظاهر اللغة في الأمم والمناطق تبعا لاختلافها في نوع الانتاج، ونظم الاقتصاد، وشؤون الحياة المادية، والمهنة السائدة (الزراعة، الصناعة، التجارة، الصيد، ورعي الأغنام). وقد تؤثر هذه المظاهر في أصوات اللغة نفسها. فقد يؤدي نوع العمل الذي يزاوله سكان منطقة ما إلى تشكيل أعضاء نطقهم في صورة خاصة تتأثر بها مخارج الحروف ونبرات الألفاظ ومناهج التطور الصوتي.

اللغة مرآة ينعكس فيها كذلك ما يسيرعليه الناطقون بها في شؤونهم الاجتماعية العامة. فعقائد الأمة وتقاليدها، وما تخضع له من مبادىء في نواحي السياسة والتشريع والقضاء والأخلاق والتربية وحياة الأسرة، وميلها إلى الحرب أو جنوحها إلى السلم، وما تعتنقه من نظم بصدد الموسيقى والنحت والرسم والتصوير والعمارة وسائر أنواع الفنون الجميلة. كل ذلك وما إليه يصبغ اللغة بصبغة خاصة في جميع مظاهرها: الأصوات والمفردات والدلالة والقواعد والأساليب.

وكان للإسلام وما أتى به من تطور فكري واجتماعي آثار بعيدة في اللغة وتطوير معاني الكثير من ألفاظها التي لم تكن مستعملة من قبل، وألبس ألفاظا قديمة معاني جديدة لم تكن تلبسها وتدل عليها. وأشار الدكتور مازن مبارك (١٩٧٠، ١٢٣) إلى أن ابن فارس ذكر إلى جانب الألفاظ الإسلامية ألفاظا عربية كانت مستعملة قبل الإسلام ثم زالت بمجيئه فقال: ومن الأسماء كانت وما زالت يزاول معانيها، قولهم (المرباع، والنشيطة، والفضول، والنواتج) ومما ترك أيضا (الأتاوة والمكس والحلوان) وكذلك قولهم: أَنْعِمْ صَباحاً وأَنْعِمْ ظَلاماً.

رابعا:– أسباب تاريخية

وهي أسباب ناتجة عن تغير المجتمع أو الأشياء، وتعني انتقال اللغة من جيل إلى جيل، وعلى الرغم من أن الطفل يأخذ اللغة عن أبويه والمحيطين به، فإن لغة الخلف في كل أمة تختلف عن لغة السلف في كثير من المظاهر، وبخاصة مظاهر الصوت.

ويرجع جزء يسير من نواحي هذا الاختلاف إلى أمور خاصة مقصورة على بعض الأفراد: كالعيوب الصوتية التي يصاب بها بعض الناس، وضعف السمع، واختلاف أعضاء النطق وما إلى ذلك. (وافي، ٢٠٠٤، ٢٥٠).

والتطور إما أن يكون شعوريا أو لا شعوريا، فالتطور اللاشعوري يتم في كل لغة وفي كل بيئة ولا يفطن إلا بعد المقارنة ما بين العصور. والتطور المقصود المتعمد الذي يقوم به المهرة من صناع الكلام كالمجامع اللغوية، وهذا التطور يحصل في مدة قصيرة. (أنيس، ١٩٨٤، ١٣٤ – ١٣٥) .

التطور الدلالي في القرآن الكريم

لقد نزل القرآن الكريم بلغة العرب، واللغة العربية شأنها شأن جميع اللغات عرضة للتطور، إذ إن اللغات كافة تخضع لسنة التطور. ومما لاشك فيه أن الإسلام حدث خطير في تاريخ العرب واللغة العربية، وقد أسهم إسهاما كبيرا في تطورها، ولذلك أحمد بن فارس (١٩٩٧، ٤٤) يقول: " كانت العرب في جاهليتها على أرث من أرث آبائهم، في لغاتهم وآدابهم، ونسائكهم، وقرابينهم، فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال، ونسخت ديانات، وأبطلت أمور، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع إلى مواضع أخرى بزيادات زيدت، وشرائع شرعت، وشرائط شرطت، فعفى الآخر الأول...".

لقد وردت في القرآن الكريم كثير من الألفاظ التي تطورت دلالتها عما كانت عليه في الجاهلية تعميما أو تخصيصا أو انتقالا في الدلالة ولا سيما بالألفاظ الإسلامية أو المصطلح القرآني، وأشار إلى هذا الكثير من المفسرين في تفاسيرهم. (زاهد، ٢٠٠٢، مج١، ١٤٩ – ١٦٤).

ويمكننا أن نعرض بعضا من الألفاظ والمراحل التي مرت منها..

١. الإيمان والمؤمن

أصل المادة يعني الأمن الذي هو ضد الخوف، ثم تطورت إلى معناها الأمانة ضد الخيانة، ومن ثم تطورت إلى الإيمان بالتصديق، (أبو عودة، ١٩٨٥، ٢٥٥). فلهذا نجد أن كثيرا من المفسرين ذكروا عدة أقوال في أصل معنى (الإيمان)، وهي:

الأول: التصديق، أي أن المؤمن هو الذي يصدق بالشيء، كذلك الذي يصدق فعله مع قوله، (الطبري،٢٠٠١، مج١، ١٢٨) كقوله تعالى: {قالَتِ الأعرابُ آمنَّا قلْ لم تُؤمنوا ولكنْ قولوا أسلَمنا}. (الحجرات: ١٤) لأن أعمال الأعراب لم تكن تصدق أقوالهم.

الثاني: الأمان، أي أن المؤمن هو الذي يؤمن نفسه من العذاب أو غيره. (الطوسي، ١٤٠٩هـ، مج١، ٥٥).

الثالث: الوثوق والسكون والطمأنينة، قال الزمخشري: " وأما ما حكى أبو زيد عن العرب: ما آمنت أن أجد صحابة – أي ما وثقت – فحقيقته: صرت ذا أمن به، أي ذا سكون وطمأنينة.." (الطبرسي، ١٩٩٥، مج١، ٨٤).

ثم أشار المفسرون بعد ذلك إلى المعنى الشرعي الذي انتقلت إليه لفظة (الإيمان) فأصبحت لفظة الإيمان كلمة جامعة للإقرار بالله وكتبه ورسله وتصديق الإقرار بالفعل، (الطبرسي، ١٩٩٥، مج١، ٨٤). أو هو التصديق بالقلب والعمل بالأركان والقول باللسان، (الطوسي، ١٤٠٩هـ، مج١، ٥٦).

فانتقلت من معناها العام وهو التصديق والأمان والوثوق والسكون والطمأنينة إلى معنى خاص شرعي.

٢. الإسلام والمسلم

مدلولات كلمة (الإسلام) في الحياة الجاهلية، كانت تعني البراءة والتسليم والخضوع، ثم تطورت فأخذت تطلق على الخضوع والتذلل لله تعالى وحده، أي انتقلت دلالة اللفظة من العام إلى الخاص.(أبو عودة، ١٩٨٥، ٢٣٥). وأصل الإسلام الاستسلام، لأنه استسلمت لأمره، وهو الانقياد لأمر الله تعالى بالخضوع، والإقرار بجميع ما أوجب عليه (الطوسي، ١٤٠٩هـ، مج١، ٤٦٤).

٣. الكفر والكافر

ذكر المفسرون أن أصل معنى الكفر التغطية والستر، ولذلك سمي الليل كافرا لأن ظلمته تغطي ما لبسته.. وذكر شعراء كثيرون هذه الكلمة في أشعارهم بمعنى التغطية. فالتراب إذا غطى الرماد فهو رماد مكفور، والماء في النهر إذا غطى ما فيه فهو نهر كافر،وسميت أكمام الزرع بالكافور لأنه يكون فيه وسمي وعاء الطلعة الذي يستر اللب بالكفري، وسمي الزراع كافرا لانه يقوم بتغطية البذر أثناء الزراعة (ابن منظور، ١٩٨٥، مج٥، ١٤٧؛ الطبرسي، ١٩٩٥، مج١، ٢٦٨) ومنه قوله تعالى: {اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ

عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} (الحديد: ٢٠) وسمي الذي يتغطى بالسلاح متكفراً به، ثم تطورت دلالة الكفر من التغطية إلى معنى آخر وهو جحود الله سبحانه وتعالى وما جاء به أنبياؤه ورسله. (الطوسي، ١٤٠٩هـ، مج١، ٦١). وعندما نقول للجاحد كافراً، إنما يأتي هذا لتغطيته مبادئ الإسلام عن قصد كتغطية الزراع للبذر.

٤. النفاق والمنافق

للكلمة عدة معانٍ في الجاهلية منها، الرواج في البيع، قالوا: نفق البيعُ نفاقا، والموت مثل: نفق الفرس أي مات، وأصل النفاق حسب رأي المفسرين هو دلالته على الخروج وهو مأخوذ من النفقة والنافقاء، موضع يرققه اليربوع في جحره، (أبو عودة، ١٩٨٥، ٢٦٣). ثم تطورت دلالته فأصبحت هذه اللفظة تدل على إسرار الكفر وإظهار الإيمان، قال الطوسي (١٤٠٩هـ، مج٩، ٣١٥): "والنفاق إسرار الكفر وإظهار الإيمان، فكل نفاق هو إظهار خلاف الإبطان. وأصله من نافقاء اليربوع، وهو أن يجعل لسربه بابين يظهر أحدهما ويخفي الآخر، فإذا أتى من الظاهر خرج من الآخر، فالمنافق يقوي الباطل بالظن له، وإلقاء خلافة لتضييعه الدليل المؤدي إليه".

٥. الفسق والفاسق

ذكر المفسرون قولين في أصل الفسق:

الأول: إن أصل الفسق هو دلالته على الخروج، وهو مأخوذ من (فسقت الرطبة، إذا خرجت من قشرها؛ ومن ذلك سميت الفارة فويسقة لخروجها عن جحرها) (ابن منظور،١٩٨٥، مج١٠، ٣٠٨). ثم تطورت دلالة اللفظة فأصبحت تدل على الخروج والعدول عن أمر الله سبحانه وتعالى (الطوسي، ١٤٠٩هـ، مج١، ١٢٠).

والثاني: إنَّ أصل الفسق هو دلالته على الاتساع، "وإنما سمي المنافق فاسقا، لاتساعه في محارم الله" (الطبري، ٢٠٠٢، مج١٥، ٢٦١).

٦. الصلاة

لقد ذكر المفسرون عدة أقوال في أصل الصلاة، وهي:

الأول: الدعاء، وعليه إجماع المفسرين ما عدا الزمخشريّ، وإنما سميت الصلاة بهذا الاسم "لأن المصلي متعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله مع ما يسأل ربه فيها من حاجاته تعرض الداعي بدعائه ربه استنجاح حاجاته وسؤاله" (الطوسي، ١٤٠٩هـ، مج١، ٥٧). وفي قوله تعالى {وصلِّ عليْهم } (التوبة: ١٠٣) بمعنى ادعُ لهم.

وقال الأعشى :

لها حارس لا يبرح الدهر بيتها وإن ذبحت صلى عليها وزمزما

الثاني: اللزوم، أي أن الصلاة سميت بهذا الاسم لأن المصلي ملازم للعبادة فيها إلى حد معلوم قد أمر الله سبحانه وتعالى به. (الطوسي، ١٤٠٩هـ، مج١، ١٩٣ - ١٩٤). ويقول ابن منظور: "والأصل في الصلاة اللزوم، والصلاة لزوم ما فرض الله تعالى، والصلاة من أعظم الفرض الذي أُمر بلزومه" (ابن منظور، ١٩٨٥، مج١٤، ٤٦٥).

الثالث: الصلا، ويقصد به وسط الظّهرِ من الإنسان ومن كلِّ ذي أربعٍ، وقيل: هو ما انحدَر الوَرِكَيْن، وقيل: هي الفُرْحَة بين الجاعرةِ والذّنب، وقيل: هو ما عن يمين الذّنب وشِمالِه، والجمعُ صلواتٌ وأصلاءٌ الأولى مما جُمِعَ من المذكّر بالألف والتاء. (موسوي، ١٤٢١هـ، ١٦١). وقيل: عظم العجز لرفعه في الركوع والسجود واختاره الزمخشريّ.

وقال بعضهم: أصل الصلاة من الصلاء، قال ومعنى صلّى الرجُلُ أي أنه أزالَ عن نفسهِ بهذه العبادةِ الصلاء الذي هو نارُ اللهِ الموقدةُ، وبناءُ صلى كبناء مَرّض لإزالة المَرض، ويسمّى موضعُ العبادة الصلاة، ولذلك سُمّيت الكنائس صلواتٍ كقوله: {لَهُدِّمَتْ صَوامعُ وبيعٌ وصلواتٌ ومَسَاجد} (الحج:٤٠) وكلّ موضع مدح اللهُ تعالى بفعل الصلاة أو حثَّ عليه، ذكر بلفظ الإقامة، نحو: (والمقيمين الصلاة – وأقيموا الصلاة – وأقاموا الصلاة، و لم يقل المصلّينَ إلا في المنافقينَ نحو قوله تعالى: { فويلٌ للمُصَلِّين الذينَ هُمْ عنْ صَلاتِهم سَاهُون} (الماعون: ٤-٥) {ولا يَأتونَ الصَّلاةَ إلاَّ وَهُم كُسَالى}. (التوبة: ٥٤)

ثم تطور معنى الصلاة من المعنى العام الذي تدل عليه وهو الدعاء أو اللزوم أو تحريك الصلوين إلى معنى خاص وهو "عبارة عن الركوع والسجود على وجه مخصوص وأركان وأذكار مخصوصة" (الطوسي، ١٤٠٩، مج١، ٥٧).

٧. السجود

السجود بمعنى الخضوع والانقياد لله تعالى، قال تعالى: (والنّجمُ والشَجرُ يَسْجُدان}. (الرحمن:٦) أي: يخضعان لله، ومن معاني الخضوع وأبرزها: الصلاة، فأطلق الله على الصلاة سجوداً، أي: خضوعاً لجبروته، وكبريائه، ولقوته العظيمة، ورحمته الواسعة، (البع، ٢٠٠٨، ٦). قال تعالى: {ولله يَسْجدُ مَنْ في السَّمواتِ والأرض}. (الرعد:١٥)، أي: يصلي ثم تطورت دلالة هذا اللفظ من معناه العام إلى معنى خاص وهو "عبارة عن عمل مخصوص في الصلاة – والركوع والقنوت كذلك – وهو وضع الجبهة على الأرض" (الطوسي، ١٤٠٩هـ، مج١، ١٤٨).

٨. القنوت

القنوت هو المداومة على العمل، فالقانت هو المداوم على الشيء (الطوسي،١٤٠٩، مج٨، ٣٣٨). وردت الكلمة في القرآن الكريم (واقنتي لربكِ واسجدي ..) بمعنى "الطاعة والعبادة وقيل طول القيام في الصلاة وهو قول الأكثرين" (الكلبي، ١٣٥٥هـ، مج١، ١٠٧). ثم تطور معنى القنوت إلى معنى خاص وهو ارتباطه بالصلاة، فـ (القنوت في الصلاة: طول القيام) بدلالة ما روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قوله : (أفضل الصلاة طول القنوت) يعني طول القيام (الشريف الرضي، ١٩٩٧، ٢٣١).

٩. الصوم

استعملت العرب كلمة الصوم بمعنى التنقّل من حال إلى حال. ويقال للصمت صوم لأنه إمساك عن الكلام، قال الله تعالى مخبرا عن مريم {إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا} (مريم: ٢٦)، أي سكوتا عن الكلام...

وورد بيتان لامرئ القيس:

فدعها وسلّ الهم عنك بجسرة ذمول إذا صام النهار وهجّرا

"أي أبطأت الشمس عن الانتقال والسير فصارت بالإبطاء كالممسكة" (القرطبي، ٢٠٦٦، مج٢، ٢٧٣). ثم تطورت دلالته من هذا المعنى العام إلى معنى خاص و"هو الإمساك عن أشياء

مخصوصة على وجه مخصوص ممن هو على صفات مخصوصة في زمان مخصوص" (الطوسي، ١٤٠٩هـ، مج٢، ١١٥).

١٠. الزكاة

ذهب المفسرون إلى أن الزكاة مأخوذة من زكا الشيء ، يزكو أي زاد و نما ، يُقال : زكا الزرع و زكت التجارة إذا زاد و نما كل منهما، و لم تكن العرب تعرفها إلا من ناحية (النماء)، وزاد الشرع ما زاده فيها (بن فارس، ١٩٧٧، ٧٨ – ٨٦)، وتُستَعمل أيضاً بمعنى الطهارة ومنه قوله تعالى {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا} (الشمس: ٩)، أي قد أفلح من طهَّر نفسه من الأخلاق الرديئة. ثم استُعمِلَت الكلمة في اصطلاح الشريعة الإسلامية لقدر مخصوص من بعض أنواع المال يجب صرفه لأصناف مُعيَّنة من الناس.

١١. الحَـــــجُّ:

للحج معانٍ كثيرةٍ في اللغة العربية، منها الكفُّ نحو حجّ عن الشيء أي: كفَّ عن الشيء (الرعيني، ١٩٩٥، مج٣، ٤١٨)، والحجّ" أيضاً هو الغلبة بالحُجّة، أي ترتيب الأفكار ترتيبًا معيّنًا، يُقصد به الدلالة بقوّة على فكرة معيّنة وانطلاقًا من هذا المعنى استُعمل لفظ "الحج" للتعبير عن معنى "القصد" لأن الذي "يحتجّ" إنما "يقصد" الوصول إلى نتيجة معينة (ابن فارس، ١٩٧٧، مج٢، ٣٠) كقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (البقرة: ٢٥٨) فهذه الآية تُظهر بجلاء أن استعمال كلمة "الحج" بمعنى "القصد" و"الغلبة بالحجة"، ينير لنا السبيل في فهم العلوم بالشكل الصحيح والدقيق، وفي الحديث (فحج آدم موسى) (السيوطي، ٢٠٠٤، مج١، ٥٥) أي غلبه بالحجة. ويقول ابن منظور (١٩٨٥، مج٢، ٢٢٦) "الحَجُّ :القصدُ، حجَّ إلينا فلانٌ أي قَدِمَ؛ وحجَّه يَحُجُّه حجًّا: قصده. وحجَجْتُ فلاناً واعتمَدتُه أي قصدته. وقد حَجَّ بنو فلان فلانًا إذا أطالوا الاختلاف إليْه"؛ قال المُخَبَّلُ السعدي:

وَأَشْهَدُ مِنْ عَوْفٍ حُلُولاً كَثِيرَةً يَحُجُّونَ سِبَّ الزِّبْرِقَانِ المُزَعْفَرَا

و المقصود من القصد هنا هو كثرة القصد إلى من تعظِّمه، فإذا ذهبت إلى محلك التجاري فلست حاجاً، فيجب أن تذهب إلى شيء تعظمه.

ثمَّ أصبح معناه في دين الإسلام: قصْد البيت الحرام في زمَن مخصوص بنيَّة أداء المناسك، من طوافٍ، وسعْي، ووقوفٍ بعرفة وغيرها.

١٢. العمـــــــــرة

أصل معنى العمرة هو الزيارة والقصد، (الطبري، ٢٠٠٢، مج١، ٥٥٥) ولفظ العمرة مأخوذ "من العمارة لان الزائر للمكان يعمره بزيارته له" (الطوسي، ١٤٠٩، مج٢، ٤٣). ثم تطور هذا المعنى العام إلى معنى خاص وهو زيارة بيت الله الحرام.

١٣. الطـــــــــلاق

ذكر الطوسيّ والزمخشريّ أن أصل الطلاق هو دلالته على الانطلاق وهو ضد التقييد، وذكرا ما يدل عليه لفظ الطلاق من معان لغوية، فقال الطوسيّ: (١٤٠٩، مج٢، ٢٣٦) "والطلق الشوط من الجري. والطلق قيد من قدم او عقب تقيد به الإبل، ورجل طلق الوجه: بهلول ضحاك، ويوم طلق إذا لم يكن فيه حر، ولا قر والطليق: الأسير يخلى عنه ورجل طلق اليدين: سمح بالعطاء..." وقال الزمخشريّ في معجمه (٢٠٠٦، ٣٩٤) "أطلقت الأسير، وهو طليق، وهو من الطلقاء. وأطلقت الناقة من عقالها فطلقت، وهي طالق وطلق، وابل أطلاق، قال ذو الرمة:

تقاذفن أطلاقا وقارب خطوه عن الذود تقييد وهن حبائبه

وناقة طالق: ترعى حيث شاءت ولا تمنع. وتطلق الظبي: خلى عن قوائمه ومضى لا يلوي على شيء..."، ثم ذكرا بعد ذلك المعنى الذي تطورت إليه لفظة الطلاق وهو الطلاق المعروف في الشرع وهو "حل عقدة النكاح بما يوجبه في الشريعة" (الطوسي، ١٤٠٩هـــ، مج٢، ٢٣٥). والعلاقة بين المعنى اللغوي الأول وبين المعنى الشرعي واضحة وهي علاقة مجازية في انحلال المرأة وانطلاقها عن عقدة النكاح

ومن خلال هذه الأمثلة يتضح لنا أن الألفاظ والمصطلحات الإسلامية قد تطورت من معنى عام الى معنى خاص – غالباً – وهو ما يسمى بتخصيص الدلالة، وهو الأمر الذي تنبه إليه المفسرون منذ وقت مبكر.

مظاهر التطور الدلالي

ولعل أهم مظاهر التطور الدلالي تنحصر في:

١. رقي الدلالة: الرقيُّ في اللغة هو: الارتفاع والسمو، وفي الاصطلاح تعني أن الألفاظ ذات الدلالة المنحطّة قد تتحول إلى دلالات راقية، ومن ذلك مارشال التي كانت في الماضي تعني خادم الإسطبل، (أنيس، ١٩٨٤، ١٥٨) تغيّرت دلالتها اليوم وأخذت مكانتها في الرتب العليا الشريفة، كما أن كلمتيّ ملاك ورسول كانتا تعني الشخص الذي يُرسَل في مهمة مهما كان شأنها، تطوّرت وأصبح لها دلالة سامية، وهكذا كلمة البيت التي كانت تعني السكن المصنوع من الشَّعَر (بيت الشَّعر)، أو المسكن البسيط، أصبحت تدل على المسكن الضخم متعدد الطوابق.كما كانت كلمة الفاتن تعني الفصل بين الجيد والرديء من الذهب والفضّة، فعلت منزلتها إلى معنى أسمى إذ أصبحت تُطلق على ما يُبهر في جماله.

وخلاصة الأمر أن ألفاظ اللغة تتغير معانيها تبعاً للأزمان والمراحل التي تمر بها اللغة وفقا لحاجة الناس إلى معانٍ جديدة (الحازمي، ١٤٢٤هـ، ٧١٥).

٢. انحطاط الدلالة: يحدث أحياناً أن يكون للفظ معنى راقٍ إلا أنه بمرور الزمن ولظروف اجتماعية تنحط دلالته وتصبح مبتذلة (الحازمي، ١٤٢٤هـ، ٧١٥)، فكلمة النِّسوان، وهو جمع المرأة من غير لفظها؛ كانت شاعت هذه الكلمة على ألسنة الشعراء قديمًا، كما في قول عمر بن ربيعة: إن قلبي بعد الذي نال منها كالمُعَنَّى عن سائر النِّسوان

أما الآن فقد صارت مستهجنة، سواء أكان ذلك في المستوى الأدبي للغة أم في الخطاب العادي في بعض البلاد كمصر، مع أنها تشيع في الخطاب اليومي في بعض

البيئات، كما في بلاد الشام، التي لا يرى أهلها حرجًا أو غضاضة في استعمال الكلمة. وأيضا تركيب طول اليد التي كانت تدل على الكرم والسخاء، فقد سأل رسول الله بعض أزواجه أينا أسرع لحقاً بك يا رسول الله؟ فقال: أطولكنَّ يداً (ابن سعد، ٢٠٠١، مج٨، ٥٥). وهي اليوم تُطلق على السارق فنقول هذا صاحب يدٍ طويلة.

٣. تخصيص الدلالة: ويتضح في كلمة الحَج كما ذكرناها آنفاً، إذ كانت تعني القَصْد، فكان يقال: حَجَّ إلينا فلان، أي قَدِمَ، وحججت فلانًا، أي: قصدته، ثم استقر استعماله في القصد إلى مكة للنُّسك و الحج إلى البيت خاصة. (ابن منظور، ١٩٩٥، مج٢، ٢٢٦) وأيضا كلمة السبت فهي في اللغة يعني الدهر، فخُصَّ في الاستعمال بأحد أيام الأسبوع. وكذلك تخصصت كلمة الحريم، فبعد أن كانت تطلق على كل محرم لا يمس أصبحت الآن تطلق على النساء.

٤. تعميم الدلالة :كما في كلمة الخمر؛ إذ كانت تعني ما أسكر من عصير العنب، ثم عممت الدلالة فصارتْ تعني كل مسكر. وفي اللغة يطلق على الطفل إذا فقد والده قبل البلوغ يتيم، وإذا فقد والدته العجيّ، وإذا فقد الاثنين فهو لطيم (ابن منظور، ١٩٩٥، مج١٢، ٦٤٥). عممت دلالة اليتيم على الدلالات السابقة.

٥. توسيع الدلالة : ويتجلى ذلك في الألفاظ التي تكتسب معاني جديدة لم تكن لها أي كانت محصورة في معانٍ محدودة، وهي ما تدخل في إطار المشترك اللفظي (الحازمي، ١٤٢٤هـ، ٧١٥)، وما في ذلك من الألفاظ الدالة على الرتب العسكرية، نحو: ملازم، ونقيب...إلخ. ويؤدي المجاز هنا دورًا مهمًا في توسيع دلالة بعض الألفاظ؛ فنحن نقول رأس الأمر، ورأس الجبل، وفي المجال الرياضي رأس الحربة.

المصادر

- القرآن الكريم
- إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية ، مكتبة نهضة مصر – بدون طبع.
- إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، الطبعة الخامسة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٤م.
- البع محمد رمضان، ألفاظ السجود في القرآن الكريم – دراسة لغوية – كلية الآداب، الجامعة الإسلامية بغزة، ١٤٢٩هـ – ٢٠٠٨م.
- ابن منظور، لسان العرب، العلامة أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور الإفريقي المصري، الناشر: نشر أدب الحوزة – محرم ١٤٠٥هـ.
- أبي الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، علّق عليه: أحمد حسن بسج – دار المكتبة العلمية – بيروت/ لبنان – ١٩٩٧.
- الحاوزمي عليان بن محمد، بحث علم الدلالة عند العرب، جامعة أم القرى – مكة المكرمة، ١٤٢٤هـ.
- الحطاب الرعيني، مواهب الجليل، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ١٩٩٥م.
- الدابولي، في فقه اللغة العربية، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م التركي.
- الزمخشري أبي القاسم جار الله محمود بن عمر أحمد، أساس البلاغة، المحقق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
- الزهري محمد بن سعد بن منيع، الطبقات الكبرى، المحقق: علي محمد عمر، مكتبة الخانجي– مصر،٢٠٠١م.
- سيد سابق، فقه السنة، دار مصر للطباعة، الفتح الإعلامي العربي – القاهرة.
- السيوطي جلال الدين عبدالرحمن، الدرالمنثور، تحقيق: طارق فتحي السيد، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٤م.
- الشريف الرضي، مسائل الناصريات، التحقيق: مركز البحوث والدراسات العلمية، الناشر: رابطة الثقافة والعلاقات الإسلامية، ١٩٩٧م – ١٤١٧هـ.
- الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، ١٩٩٧م.
- الطبري محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن، محمود شاكر أبو فهر – أحمد شاكر أبو الأشبال، مكتبة ابن تيمية.
- الطوسي، التبيان، تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، الطبعة الأولى، مكتبة الإعلام الإسلامي، ١٤٠٩هـ.

– عودة خليل أبو عودة، التطور الدلالي بين لغة الشعر الجاهلي ولغة القرآن، مكتبة المنار – الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م.

– الغرناطي الكلبي، التسهيل لعلوم التنزيل، المكتبة التجارية الكبرى، الطبعة الأولى، ١٣٥٥هـ.

– القرطبي، تفسير القرطبي، المحقق: عبدالله بن عبدالمحسن التركي، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة ، ٢٠٠٦م.

– قدور أحمد محمد، في الدلالة والتطور الدلالي، مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد السادس والثلاثون، عمان، ١٩٨١م.

– مازن المبارك، نحو وعي لغوي، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية – ١٩٨٥م.

– محمود مصطفى احمد القويدر، البحث الدلالي عند الراغب الأصفهاني، دار الكتب والوثائق العراقية، ١٩٩٩م.

– وافي، علي عبد الواحد، علم اللغة، دار نهضة مصر، د. ت.